

تاريخ القبول: 2022/03/12

تاريخ الإرسال: 2021/10/19

تاريخ النشر: 2022/10/07

أشكال تلقي عبد الجليل مرتاض للأسلوبية

Forms of Abdeldjalil Mortad's reception of stylistic

¹رشيدة عيسى ، ²أسامة لنصاري ، ³أ. د رضوان جنيديجامعة تامنغست (الجزائر)، docaissarachida@yahoo.comالإيميل المهني: r.aissa@cu-tamanrasset.dzجامعة تامنغست (الجزائر)، o.LENSARI@cu-tamanrasset.dzجامعة تامنغست (الجزائر)، salimdjenidi@yahoo.fr

مخبر العلوم والبيئة تامنغست

المخلص:

عرفت الأسلوبية الغربية الحديثة باتجاهاتها المختلفة حضورا بارزا في الدراسات الجزائرية تعريفا وترجمة وممارسة، وتجاوز الأمر كل ذلك إلى تقويم الأسلوبية واقتراح البدائل خاصة في مستوى المنظومة الاصطلاحية الإجرائية؛ ومن الأسماء التي أولت هذا المنهج -القراءة- اهتماما في كتاباتها الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض؛ وسنحاول بالاعتماد على الوصف والتحليل واستخلاص النتائج دراسة أعماله التي حوت الأسلوبية تأصيلا وتعريفا وممارسة، محاولين الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف تلقى عبد الجليل مرتاض الأسلوبية الغربية الحديثة؟

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية، اللسانيات الأسلوبية، الأسلوبية البنوية، عبد الجليل مرتاض.

Abstract:

Modern western stylistic with its various sides, had known prominent presence in contemporary algerian studies, authentication, definition, translation and practice, then stylistic assessment and suggesting alternatives, especially in procedural idiomatic system, and among the names giving importance to this curriculum – reading – in his writings “ Abdeldjalil Mortad” .

In this study, depending on decription and analysis and results extraction to study his works which include stylistic , trying to answer the following question: how did Abdelmadjid Mortad receive modern western stylistic?

Keywords: stylistics, stylistic linguistics, structural stylistics, Abdelmadjid Mortad

المؤلف المرسل: رشيدة عيسى، الإيميل: DOCAISSARACHIDA@YAHOO.COM

1. مقدمة:

يوظف الدارسون في حقول الدراسات اللغوية الحديثة وعلوم النقد الأدبي والبلاغة مصطلحي (الأسلوب) و(الأسلوبية) بشكل لافت للانتباه؛ يُظهر اتساع استعمالات المصطلح الأول منهما (الأسلوب)، وتباين دلالاته من حقل إلى آخر، وداخل الحقل الواحد من دارس إلى آخر ومن زمن إلى زمن آخر، في الوقت الذي تخف فيه حدة الاختلاف وتضيق في المصطلح الآخر (الأسلوبية) مقارنة بالمصطلح الأول- لاقتصاره في الغالب على حقل الدراسات الأدبية الذي ارتبطت به، وظهوره في العصر الحديث.

عرفت الأسلوبية الغربية الحديثة باتجاهاتها المختلفة حضورا بارزا في الدراسات الجزائرية تعريفا وترجمة وممارسة، وتجاوز الأمر كل ذلك إلى تقييم الأسلوبية واقتراح البدائل خاصة في مستوى المنظومة الاصطلاحية الإجرائية؛ ومن

الأسماء التي أولت هذا المنهج -القراءة- اهتماما في كتاباتها الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض، وسنقصر دراستنا على كتبه الثلاثة: (في عالم النص والقراءة)، ثم (اللسانيات الأسلوبية)، وأخير (البنية اللسانية في رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي).

2. إشكالية تحديد مفهوم الأسلوبية:

تلقى المشتغلون العرب في حقل الدراسات الأسلوبية مصطلح (الأسلوبية) من مظانه الغربية المختلفة، فاختلفت ترجماتهم لهذا المصطلح -وما يدور في فلكه-، وتراوحت أغلب ترجماتهم بين مصطلحي (علم الأسلوب) ومصطلح (الأسلوبية)، يقول أحد الدارسين: "لكن دراسة الأسلوب أخذت تتجه اتجاها مغايرا باقتربها من حقل الدراسات اللغوية حتى اتخذت تسمية خاصة بها في اللغات الأوروبية: في الإنجليزية (Stylistics)، وفي الفرنسية (Stylistique)، وفي الألمانية (Die Stylistik) وترجمها بعض الباحثين إلى العربية إلى (علم الأسلوب) وترجمها آخرون إلى (الأسلوبية) وفضل بعضهم هذه الترجمة الأخيرة"¹.

قدم منذر عياشي لترجمته لكتاب بيير جيرو (الأسلوبية) تعريفا لمصطلح (أسلوبية) منطلقا من أهميتها، وتأكيد صعوبة ضبط حدودها والإمساك بجوهر مفهومها، يقول: "فالأسلوبية اليوم هي: دراسة اللغة، وهي أيضا دراسة للكائن المتحول باللغة، وهي كذلك دراسة للعمل الإبداعي، ودراسة لعملها الذاتي المبدع للعمل الإبداعي، ولما كانت هي كذلك فإننا نفهم أن تكون مستعصية على التقنين والنقعيد، كما كان الحال قديما مع البلاغة، كما نفهم أنها النقاط للحظات هاربة من خلال تركيب ثبنته الكتابة إلى الأبد، ولحظات لا يحاط بها من خلال أعمال تم إنجازها وبشكل نهائي"².

ويعرف بيير جيرو (Pierre Guiraud) الأسلوبية وهو يؤكد وراثتها للبلاغة، معتمدا على تتبع تاريخية المفهوم وحركة تشكله، يقول: "ويمكننا القول إن

الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، إنها علم التعبير، وهي نقد للأساليب الفردية، ولكن هذا التعريف لم يظهر إلا ببطء، وكذلك فإن العلم الجديد للأسلوب لم يعرف أهدافه ومناهجه إلا ببطء أيضاً؛ (نوفاليس) هو أول من استخدم هذا المصطلح والأسلوبية بالنسبة إليه تختلط مع البلاغة. وسبقول عنها (هيلانغ) من بعده (1837) إنها علم بلاغي، وإذا نظرنا إلى كتب الأسلوبية اللاتينية فسنرى أنها ليست سوى كتب للقواعد والأمثلة. وفورسيستر (1846) لا يراها إلا هكذا³.

ويتتبع هذا العالم اللساني الفرنسي العلاقة بين كلمتي الأسلوب والأسلوبية، ساعياً إلى فهم الثانية بناء على الكلمة الأولى، ومحدداً تصويره للمفهوم الاصطلاحي للأسلوبية يقول: " فالأسلوب يعرف ضمن حدوده بالسمة الخاصة لفعل من الأفعال، ويمكن أن نتصور الأسلوبية العامة دراسة للعلاقات بين الشكل وبين مجموع الأسباب الإخبارية [...] تبقى الأسلوبية كما نتصورها وكما وصفناها في هذا الكتاب دراسة للتعبير اللساني، أما كلمة الأسلوب إذا ردت إلى تعريفها الأصلي فهي تعني طريقة التعبير عن الفكر بوساطة اللغة"⁴؛ ويتبنى بيير جيرو في كتابه فكرة أن الأسلوبية وريثة البلاغة القديمة التي تجددت في العصر الكلاسيكي مكونة الأسلوبية، يقول في حديثه عن مكان البلاغة وحدودها: "والبلاغة هي أسلوبية القدماء، وهي علم الأسلوب"⁵.

ويحدد جميل حمداوي في كتابه (اتجاهات الأسلوبية) مفهوم الأسلوبية بشكل مركز موجز مستفيداً من تعريفات سابقه - دون ذكرهم - يقول: "يقصد بالأسلوبية (Stylistique) دراسة الأسلوب دراسة علمية في مختلف تمثالاته اللسانية والبنوية والسميائية والهيرمونيطيقية، وتعد الأسلوبية أيضاً فرعاً حديثاً من فروع اللسانيات إلى جانب الشعرية السيميائيات والتداوليات، وتهتم بوصف الأسلوب بنية ودلالة ومقصدية [...] ومن هنا فإن الأسلوبية هي دراسة الأسلوب في مختلف

تجلياته الصوتية والمقطعية والدلالية والتركيبية والتداولية، ومن ثم فهي تهتم باستكشاف خصائص الأسلوب الأدبي وغير الأدبي، مع جرد مواصفاته المتميزة وتحديد مميزاته الفردية⁶؛ وتشغل الأسلوبية بالأجناس الأدبية، وصيغ تأليف النصوص وصولاً إلى أدبيتها.

أقر صالح فضل في كتابه (علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته) أن مصطلح علم الأسلوب هو نفسه مصطلح الأسلوبية - وقد سار كثير من الدارسين العرب المعاصرين على خطاه-، يقول في تقديمه لكتابه سالف الذكر: "تحاول هذه الصفحات القلائل أن تجلو بقصد وعلى بيئة فرعا من العلوم الإنسانية الشابة، لم يظفر بما يستحقه في اللغة العربية من رعاية واهتمام حتى الآن؛ إذ إنه على أصالة جذوره في ثقافتنا للوهلة الأولى، وتوافر الأسباب الظاهرية لنموه عندنا، ودوره كوريث شرعي للبلاغة العجوز التي أدركها سن اليأس وحكم عليها تطور الفنون والآداب الحديثة بالعقم، ينحدر من أصلاب مختلفة، ترجع إلى أبوين فنيين هما علم اللغة الحديث -أو الأسنسية إن شئنا أن نطلق عليها تسمية أشد توافقاً مع دورها في أمومة علم الأسلوب- من جانب، وعلم الجمال الذي أدى مهمة الأبوة الأولى من جانب آخر"⁷.

3. موضوع الأسلوبية ووظيفتها:

حاول نبيل راغب في (موسوعة النظريات الأدبية) وهو يعرف الأسلوبية أن يحدد وظيفتها، يقول: "بدأت الأسلوبية كنظرية أدبية من علم اللغة، رغم أن علماء اللغة كانوا قد أصروا على الابتعاد بعلمهم عن ميدان النقد الأدبي، ولكنهم عادوا إليه ليستخدموا أدواتهم ومناهجهم اللغوية في تناول النص الأدبي، وهو ما يعرف الآن بالنظرية الأسلوبية التي تضع علم الأسلوب بين يدي الناقد كخطوة أولى لتساعده على فهم العمل الأدبي فهما موضوعياً بقدر الإمكان [...] ذلك أن الأسلوبية تطبق

مناهج البحث اللغوي على النص الأدبي خاصة فيما يعرف بمستويات التحليل⁸؛ ويركز صاحب الموسوعة على دراسة الإمكانيات التعبيرية المميزة لعمل الأديب. ويخصص جميل حمداوي في بحثه (اتجاهات الأسلوبية) مبحثاً خصه لموضوع الأسلوبية، يقول: "موضوع الأسلوبية هو الأسلوب بصفة عامة، إلا أن الأسلوبية تطرح مواضيع أخرى للتداول والمناقشة والتحليل والدراسة، ومن بينها: موضوع الكتابة والصياغة وموضوع التلفظ وثنائية التعيين والتضمين وثنائية التقرير والإيحاء وثنائية الاتساق والانسجام وقضية الانزياح، وقضية المسافة الجمالية في علاقتها بتخييب أفق الانتظار، وقضية التجنيس الأدبي في ضوء المعايير الأسلوبية والشكلية والاهتمام بأدبية النص الأدبي، ودراسة الوظيفة الشعرية ورصد الصور البلاغية، ودراسة نظرية أفعال الكلام، والعناية بثنائية اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول"⁹؛ والملاحظ أن صاحب القول يوسع من مجالات الدرس الأسلوبي ليتجاوز مقولة بوفون ومن استقوا من معينه في النقد النصي إلى نظرية التلقي والمقاربة التداولية.

واعتمد الدارسون¹⁰ ما أورده صلاح فضل في بحثه سالف الذكر بتحديدته لاتجاهين في "علم الأسلوب: أحدهما يتمثل في علم أسلوب التعبير، ويدرس العلاقة بين الصيغ والفكر في عمومها، وهو الذي ربما يقابل بلاغة الأقدمين، والآخر هو علم الأسلوب الفردي وهو في واقع الأمر نقد للأسلوب بدراسة علاقة التعبير بالفردي أو الجماعة التي تبذره وتستخدمه، ومن هنا فهي دراسة توليدية وليست تقييمية أو تعقيدية [...]"، فعلم أسلوب التعبير لا يخرج عن نطاق اللغة، ولا يتعدى وقائعها في حد ذاته، أما علم الأسلوب الفردي فهو يدرس نفس هذا التعبير في علاقته بالأشخاص المتحدثين به¹¹؛ ويتبين من خلال ذلك أن الأول منهما أساسه الوصف

والاستنتاج ومجاله علم الدلالة ودراسة المعاني، والآخر التوليد وحقله النقد الأدبي، وهدفه استجلاء بواعث البنى اللغوية وأسبابها.

توسع عبد السلام المسدي في حديثه عن موضوع الأسلوبية وارتكز على حدود مفهومها المتغير بتغير المنطلقات الفكرية لصاحب التعريف أو أصحابه فكل اتجاه أسلوبى يحدد موضوع الأسلوبية، وقد يتجاوز في رسم كل دارس داخل الاتجاه الواحد معالم موضوع الأسلوبية ومجال دراستها، يقول مبرزا موضوع الأسلوبية عند واضعها الأول شارل بالي: " وتأتي الأسلوبية لتتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة، أو ما يسميه ج. مونان (بالتشويه) الذي يصيب به سامعه في ضرب من العدوى فهي إذن تعنى بالجانب العاطفي للظاهرة اللغوية وتقفُ نفسها على استقصاء الكثافة الشعورية التي يشحن بها المتكلم خطابها في استعماله النوعي لذلك حدد بالي حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية؛ فمعدن الأسلوبية حسب بالي ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل حتى الاجتماعية والنفسية، فهي إذن تتكشف أولا بالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني"¹².

ويستعرض المسدي بعض تعريفات الأسلوبية¹³ التي تربطها باللسانيات، مبتدئا بقول مشال أريفاي: "إن الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات، ثم قول دولاس: " إن الأسلوبية تعرف بأنها منهج لساني؛ ويحدد تعريف ريفاتير موضوع الأسلوبية ويربطه باللسانيات، يقول: "أما ريفاتير فإنه ينطلق من تعريف الأسلوبية بأنها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباحث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبل، والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المتقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية (لسانيات) تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك مخصوص"¹⁴.

4. تلقى عبد الجليل مرتاض للأسلوبية:

عرفت الأسلوبية الغربية الحديثة باتجاهاتها المختلفة حضورا بارزا في الدراسات الجزائرية تعريفا وترجمة وممارسة، وتجاوز الأمر كل ذلك إلى تقويم الأسلوبية واقتراح البدائل خاصة في مستوى المنظومة الاصطلاحية الإجرائية؛ ومن الأسماء التي أولت هذا المنهج -القراءة- اهتماما في كتاباتها الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض، وسنقصر دراستنا على كتبه الثلاثة: (في عالم النص والقراءة)، ثم (اللسانيات الأسلوبية)، وأخير (البنية اللسانية في رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي)، وقد فرض هذا الترتيب الاختيار المنهجي في قراءة هذه الكتب وتحليلها.

1.4 التأصيل للأسلوبية العربية:

خصص عبد الجليل مرتاض في كتابه (في عالم النص والقراءة) الفصل السابع والأخير من فصول الكتاب للقراءة الأسلوبية، وقد عنوانه بـ: القراءة بين المعيارية والأسلوبية، وقد استهله بالتساؤل عن ماهية المعيارية، وقصر الإجابة عن تساؤله باختيار تعريف جورج مونان للمعيارية بأنها " موقف إزاء الكلام، يقال له: المعيارية (normatif) عندما يستند إلى عياري مثالي (idéale) ومبتدل (figé) لرفض الأشكال الجديدة المنتجة من قبل تطور غير قابل للانتخاب في اللغة"¹⁵؛ ويرى أن المعيارية ترتكز على مقاييس سوسيو لسانية بعيدة عن نظيرتها اللسانية.

ويتطرق بعدها إلى المعيارية العربية المبكرة - مكتفيا بالاستشهاد لها بثلاثة نماذج شعرية تشكلت كل منها من بيت واحد، وإليها حديث لعمر بن الخطاب- فيما أطلق عليه (قراءات نقدية لسانية قديمة) أثارتها قضية العدول عن المعايير المألوفة المتداولة، التي تجانب نظيرتهم " إلى النصوص المعروضة أو المسموعة نظرة شاملة على أنها نسق واحد، وأن كل مكون من مكوناته يسهم في التفاعل العام

أو البناء الكلي الصاعد من درجة الصفر إلى نهاية الجملة أو النص¹⁶، ويتساوى في ذلك درايتهم بصنيعهم هذا أو قصورهم عن معرفته.

ولعل ما يلفت انتباهنا في ما طرحه عبد الجليل مرتاض هو إقراره أن مثل هذه القراءات النقدية للسانية التراثية " توافقت ما أصبح يسمى بعد إشراف هذا القرن بالأسلوب والأسلوبية، وحتى القواعد المعيارية الصارمة التي ابتكروها للعربية تدل على قراءة جامعة"¹⁷، تعتمد النحو الصرف والعروض علم الأصوات والبلاغة؛ ففي قوله تأكيد على أصالة القراءة الأسلوبية - أو ما يوافقها- في الدرس النقدي العربي التراثي.

وانتقل عبد الجليل بعدها إلى الحديث عن بواذر فساد المعيارية، ومنها إلى تناول الصراع بين المعيارية والعدول الطارئ، ليقدم بعدها نموذجا لقراءة معيارية قديمة أقرها صاحب (الشعر الشعراء) ابن قتيبة¹⁸ في قضية اللفظ والمعنى؛ ويؤرخ لبداية الثورة على المعيارية ببداية القرن الثاني الهجري.

ويحمل المبحث الموالي الذي ارتضى له عبد الجليل مرتاض عنوانا هو "القراءات القرآنية أول أسلوبية عربية" تأكيدا صريحا لمعرفة العرب القدماء بالأسلوبية -أو ما يوافقها-، يؤصل ولوجهم هذه القراءة التي ستأسس تأسيسا غربيا في العصر الحديث؛ فقد استطاعت الساحة اللسانية العربية القديمة أن تفسر اللغة باللغة، وقد عدّ عبد الجليل مرتاض هذا التأويل المعيار " آخر ما وصلت إليه النظريات اللسانية المعاصرة والذي أصبحت تسميه (المحايدة) منذ أن تبنى سوسور هذا المبدأ"¹⁹.

وبعد انتقاله للحديث عن المعيارية بين العرب والأجانب ثم علاقة المعيارية بالتجديد، بحث عن مفهوم يميز بين الأسلوب والأسلوبية من خلال السؤال الذي وسم عنوان مبحثه (أسلوب أم أسلوبية)، وأكد علاقة الأسلوبية بالبلاغة والتباس الأولى

بالثانية، قائلا: " أما الأسلوبية فهي بلاغة معاصرة في شكلها المزدوج، فهي علم التعبير ونقد الأساليب الفردية"²⁰ ؛ ويتضح لنا اشتغال قوله على مجموعة من النقاط أولها وراثته الأسلوبية للبلاغة وحلولها محلها، وثانيها ارتباط القول بالأسلوبية التعبيرية، وثالثها امتزاجها بالأسلوبية الفردية.

ولا يخفى ما في قوله من إعادة لما أكده بيير جبرو في كتابه (الأسلوبية) حين قال: " ويمكننا القول إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، إنها علم التعبير، وهي نقد الأساليب الفردية، ولكن هذا التعريف لم يظهر إلا ببطء، وكذلك فإن العلم الجديد للأسلوب لم يعرف أهدافه ومناهجه إلا ببطء أيضا"²¹، رغم أن عبد الجليل مرتاض لم يحل إلى صاحب القول الأصلي.

ويستعرض بعدها أسلوبية شارل بالي، والفنو-أسلوبية عند تروتسكوي، والبنوية الأسلوبية عند جاكسون وميكائيل ريفاتير، وما أقره جورج مونان في اتجاه الأسلوبية من حيث تاريخ تطورها إلى اتجاهات ثلاثة: البلاغة القديمة، والأسلوبية الوراثة، والأسلوبية الوصفية.

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى أن عبد الجليل مرتاض يؤكد على حقيقة انبثاق الأسلوبية من رحم اللسانيات، وأن القراءات النقدية العربية القديمة مارست ما يوافق الأسلوبية الحديثة خاصة في تفسير اللغة باللغة، يضاف إلى ذلك أن الأسلوبية ورثت البلاغة القديمة وكانت امتدادا لها، فعُدّت بلاغة معاصرة.

2.4 التعريف بالأسلوبية الغربية الحديثة:

إن أول ما يستوقفنا في الدراسة التي اختار لها عبد الجليل مرتاض عنوان (اللسانيات الأسلوبية) هو إضافة مصطلح (الأسلوبية) إلى مصطلح (اللسانيات) بخلاف عنوان بحث أولريش بيوشل (linguistic stylistics)، والذي ترجمه خالد محمود جمعة بـ (الأسلوبية اللسانية)، ففي كتاب عبد الجليل مرتاض كانت اللسانيات

أصلا والأسلوبية فرعا منه، وفي بحث أولريش بيوشل كانت الأسلوبية أصلا واللسانيات - بصيغة المفرد- فرعا منها.

وقد غاب عن الكتاب المقدمة أو التقديم - وهي ظاهرة تسم كثيرا من مؤلفات الكاتب- الذي كان يمكن أن يبين سبب اختيار العنوان، وقسم عبد الجليل مرتاض عمله إلى ثلاثة عشر مبحثا -حسب رأينا- مكتفيا باعتماد الترقيم دون ذكر لفظ المبحث أو الفصل.

استهل مؤلفه بالبنوية وقواعد التحليل اللساني، يليها النظام اللساني، وبعده النص هذا المعلوم المجهول، ثم النظام اللساني في مستوى النص، يتبعه ميشال أرفي والسيميوطيقا الأدبية، وفي المبحث السادس يرد العنوان اللسانيات الأسلوبية يليه في المبحث الثامن اللسان والأسلوب، ويتناول في المبحث الثامن مرممات العمل الأدبي، فالعمل الأدبي في ضوء الملفوظ، بعده يخصص المبحث العاشر للتألف، ثم مبحث الواصلات الكلامية، فمبحث العلاقات البرهانية، وأخيرا الموضوعة الزمانية لسانيا وفنيا.

ولعل اللافت للانتباه هو ورود العنوان الرئيس للكتاب عنوانا للمبحث السادس، وهو قد يذكرنا ذلك بصنيع المؤلفين القدماء بتسمية الكل باسم الجزء، وسنكتفي بدراسة هذا المبحث من الكتاب (اللسانيات الأسلوبية) والمبحث الموالي له (اللسان والأسلوب) لارتباطهما بموضوع دراستنا.

استهل الكاتب مبحثه بتعريف الأسلوب من وجهة لسانية عامة مستعرضا مجموعة من التعريفات بداية بتعريف اللسانيين المحدثين له من خلال قاموس اللسانيات لجون دي بوا وآخرين (Dictionnaire de la linguistique)، ثم قاموس تعليمية اللغات -وقد ترجم ب قاموس الفنون التعليمية في اللغات-

(Dictionnaire de didactique des langues) من إعداد دانيال كوست وروبار غاليسون (Daniel Coste et Robert Galisson).

وانتقل من تعريف الأسلوب إلى تعريف الأسلوبية مستهلاً بالفروق بينها وبين مصطلح (الأسلوب) يقول: "برجعنا إلى مصادر معتد بها لسانيا، فإنها تقفنا على أن الأسلوبية غير الأسلوب، وكما أن الأسلوب أساليب، فذلك الأسلوبية أسلوبيات، وإذا كان الأول ظاهرة أصيلة وعامة أكثر مما هي عامة، وإذا كان الأول أشد صلة باللغة وتقنياتها وبهارجها وزخارفها وقواعدها وبلاغتها... فإن الثانية ألصق بالكلام وأدائه. وبمنظور لساني بسيط فإن الأسلوب مرتبط بالكفاءة اللغوية المثلى، في حين أن الأسلوبية وثيقة الصلة بالأداء أو الكلام الفردي الانفعالي المباشر"²².

ولا يكتفي الباحث بإيراد ما حملته المصادر، بل يحاول أن يحلل الأقوال ويناقشها ويسائل مضمونها، ومثال ذلك قوله: "وإذا ما ساورنا يقين المنظور اللساني المشار إليه أعلاه، فهل بإمكاننا أن نصف كل جنس قولي أو خطابي لساني شفهي أسلوبية، وما عده من أجناس خطية مظهر من مظاهر أسلوب؟ وما من شك، في أن تبنيًا لطرح مثل هذا يقودنا إلى عملية فرز معقدة لافتقارها إلى المقاييس الفنية والجمالية التي لا يقصى من أحضانها الجنس معاً"²³؛ ثم يخلص بعدها إلى تبني تعريف جورج مونان للأسلوبية في كتابه (مفاتيح الألسنية Clefs pour la linguistique) الذي يقول فيه "إن الأسلوبية يجب أن تكون الدراسة العلمية لفنيات أدبية لسانية بحيث إن رسالة تحتاز زيادة عندما تؤدي وظيفة شعرية أو أدبية، أو بصورة أوسع جمالية علاوة على وظيفتها التبليغية الاعتيادية"²⁴.

ويعيد الكاتب عبد الجليل مرتاض ما أورده في كتابه بخصوص كيفية تطور الدراسات الأسلوبية معتمداً على ما حدده جور مونان من اتجاهات ثلاثة مختلفة لهذا التطور، ورغم أن الكاتب حاول أن يغير في مضمون الاتجاهات الثلاثة البلاغة

الشائخة والأسلوبية الوراثية والأسلوبية الوصفية مقارنة مع ما كتبه في كتابه (في عالم النص والقراءة) إلا إن الجوهر واحد، وبعض الجمل مكررة حرفياً.

وينتقل إلى تعريف شارل بالي للأسلوبية مقدماً أمثلة تبسيطية عن تحقق الأفكار في اللغة في وضعية انفعالية، ثم يتناول الأسلوبية ملفوظات لا متوقعة مبرزاً رأيه في انتماء الأسلوبية إلى اللغة أم إلى الكلام، "والذي نراه رؤية أبعد عن الظن منها إلى اليقين أن الأسلوبية جملة من التوصلات المرسلّة من متكلم نحو متلق أو تلك التي تجري بين فردين أو أفراد في أشكال لسانية غير متوقعة"²⁵؛ ويحاول إزالة كل ضبابية قد تسم قوله بتقديم نموذجاً من معلقة امرئ القيس وجعل لذلك عنواناً هو الأسلوب والأسلوبية في المعلقة المرقسية.

ويحصر لب الأسلوبية في الانزياح عن المألوف والعدول عنه، ويرد على من انتقد²⁶ امرئ القيس لمخالفته عرف القول حين تكلم بلسان الأعراب، ولم يراع خطاب منزلته الرفيعة وهو الأمير، بقوله: "لعمري هذه هي الأسلوبية بعينها، لأن مفهوم الأسلوبية عندنا لا يعني وحسب الإتيان ببلاغة جديدة أو صرف ما لا ينصرف أو ترك ما لا ينصرف أو قصر الممدود ومد المقصور أو تعقيد ما لا ينبغي تعقيده... بل العدول عن أساليب مبتذلة وتعبير المتكلم عن موقعه الآني لا عن منزلته الاجتماعية"²⁷؛ ويستخلص من خلال هذا النموذج أنه "إذا ما أردت أن ترسم مقارنة معلمية بين الأسلوب والأسلوبية، فلك أن تؤمن بأن الأسلوب ظاهرة لغوية متوقعة، بينما الأسلوبية ظاهرة كلامية لا متوقعة"²⁸

ويتفق في إبرازه كمن الأسلوبية في سياق تكاملي لا توقعي يشكل عدولاً عن الأدوات التبليغية المتعارف عليها مع شارل بالي في تمييزه بين موضوع الأسلوبية وموضوع الأسلوب، يقول: "وهنا نتفق كلياً مع شارل بالي الذي دعا إلى البحث عن قيم الوحدات الانفعالية المتواضع عليها جماعياً من مستعملي اللغة، لا البحث عن

المعنى التصوري أو المفهومي للوحدات، وإلا وجدنا أنفسنا ندور في فلك الأسلوب²⁹.

ويتأكد إدراجنا كتاب (اللسانيات الأسلوبية) ضمن تعريف الباحث عبد الجليل مرتاض بالأسلوبية الغربية الحديثة، إذ تتبع اتجاهات الأسلوبية الغربية بين سبيتزر وبالي وجاكوبسن متتبعاً الفروق بينها مقراً صعوبة التوافق على مصطلح موحد للأسلوبية وقد يصل الحد إلى التعارض في المفاهيم، ويبرز تأثير بالي مؤسس الأسلوبية بأستاذه دي سوسير ورغم أن المنطلق واضح المعالم ينبع من المنبع دي سوسير إلا أن عبد الجليل مرتاض يستند إلى ما ورد في كتاب برنار بوتتي (la linguistique comprendre) يقول: "ومما أشير إليه أننا نقفنا وقوفاً واضحاً على أن الأسلوبية أسلوبيات، ونحن لا نعني بالأسلوبيات هنا الأسلوبية النبوغية الفردية الخاصة بالمتكلم، وإلا ألفينا أنفسنا نتحدث عن الأسلوب بمفاهيمه أفقية والبلاغية والجمالية الغامضة، بل نعني ما هو محدد من أسلوبيات يزعم منظروها من وضعيين ومثاليين ونحويين وبلاغيين ولسانيين ... أنها علمية"³⁰.

وقدم تعريفاً بأسلوبية ريفاتير البنيوية، ثم تعريف ريفاتير للأسلوب والقارئ الوسطي (architecteur) أو حاصل قراء، ثم مفهوم السياق الأسلوبي (le contexte stylistique)، ويؤكد إقرار ريفاتير بتضارب نطق مصطلحات هاذين المفهومين؛ ومحاولته التخلص قدر الإمكان من لسانيات دي سوسير، التي رأى عبد الجليل مرتاض أن "شبحها ظل يلاحقه، ولا سيما ما أسماه ثنائية القطب"³¹ وغيرها من الثنائيات؛ ويؤكد في نقده لما سبق ذكره وتعقيبه عليه أن الأسلوبية ظاهرة من الظواهر اللسانية الفرعية.

ويتتبع بعد ذلك تاريخية نشأة الأسلوبية من حيث ظهور مصطلحها وتطور مفهومه، وصولاً إلى استعراض المستويات الدراسية الخمسة لأسلوبية بالي بداية

بالأسلوبية العامة فالمصادر الأسلوبية للغة خاصة ومنها الأسلوبية الفردية أو نظام التعبير لفرد منعزل، ثم أسلوبية كاتب أو كلام خطيب وأخيرا أسلوبية الكلام المنطوق؛ وأتبعها بميلاد ما أطلق عليه أساليبيات فرعية وهي: الأسلوبية الفونولوجية والأسلوبية المقارنة والموازنة، وأشار إلى أهمية المستويين اللكسيكي والسانتكتسي في تبليغ رسالة كلامية وقدم أمثلة توضيحية لهما وللمستوى الفونولوجي.

وفي تعريفه بالأسلوبية البنيوية تناول الرؤية الجديدة للغة، وارتباط الأسلوبية البنيوية بالنظام اللساني، وأنها تضرب بجذورها في القدم وليست وليدا متأخرا، ويعقب على ما سلف ويحلل مقرا أن " أن الأفكار اللسانية التي برزت باحتشام مع نهاية القرن المنصرم وحتى يومنا هذا أفكار جافة تفتقر إلى خصوبة علمية وثورة لسانية جديدة تنسيك الأساليبيات الكلاسيكية التي تعد أوضح وأشمل من أي نمط للأسلوبية الجديدة التي إن مارسستها نصيا وعمليا، فإنها كل ما تحاول أن تمدك به تلك الأدوات الإجرائية التي لا تنكر فضلها، ولكنها لا تغنيك عن أدوات البلاغة القديمة فضلا عن أن تحل قلبا وقالبا محلها"³².

ويتناول عبد الجليل مرتاض الوظيف الأسلوبية كما نظر لها ريفاتير في حديثه الأسلوبية الإعلامية والنص، والتي يمثل القارئ محورها التي تدور حوله، "إذ مسعى الأسلوبية إنما هو تشخيص رد فعل القارئ أمام النص وإيجاد مصدر لهذه الردود الانفعالية في شكل النص، وبدافع أن الأسلوب ما هو إلا قارئ مثالي (archilecteur)، وهو ضرب من مجمل قصارى كل القراء (des somme de tous les lecteurs) أي ذلك الذي يعطى ثقافة عالية... لبضع الوحدات التي جهز لها المؤلف نصه"³³؛ وأشار إلى عدّ ريفاتير النص خيمية (effet).

وخص الحديث في المبحث السابع عن اللسان والأسلوب، محاولا الإجابة عن سؤال اللسان من خلال تعريف الأسلوب، والذي عده سمة ذاتية، كما تطرق إلى

الأسلوب والمؤسلب واللغة والأسلوب، وصولاً إلى الأنماط الثلاثة للأسلوب وممكن الأسلوب من خلال ما أورده القاموس الموسوعي لعلوم اللغة (dictionnaire encyclopédique des sciences du langage)، ويقارن بين موقف رونالد بارت وبيير جيرو من مفهوم الأسلوب مشيراً إلى مقولة بوفون، والمميز في هذا الأمر أن الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض لم يكتف باعتماد ترجمة غيره من المترجمين العرب³⁴ السابقين له الذين ترجموا المقولة، وإنما قدم ترجمته الخاصة - وهذا صنيعة في كل ترجماته- يقول: " المعارف والوقائع والاكتشافات أزيلت بسهولة لتتحول وتظفر لأن تكون عملاً فنياً من قبل أيدٍ أكثر مهارة، هذه الأشياء كلها خارج الإنسان، لأن الأسلوب هو الرجل نفسه. الأسلوب إذا لا يمكن أن يمحي، ولا أن ينقل، ولا أن يشوه (s'altérer)"³⁵، وختم المبحث بحديثه عن مفهوم الأسلوب عند المدرسة المثالية.

ويتضح لنا مما سبق أن الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض في الفصل المخصص للسانيات الأسلوبية والذي يليه لم يكتف بتعريف المتلقي العربي بمبادئ هذه الأسلوبية واتجاهاتها ومفاهيمها وأبرز وسائلها الإجرائية عند روادها والمؤسسين لها وهو جهد يستحق التنويه به والإشادة بصاحبه، ويدل على إلمام الباحث الواسع بهذا المجال من الدراسات اللسانية، وإنما تجاوز ذلك إلى التعقيب على الآراء وتحليلها والتمثيل لها لتبسيطها وإزالة الضبابية عنها، وتجاوز ذلك إلى ترجمة بعض أقوال الأسلوبيين وأصحاب القواميس المتخصصة في اللسانيات والأسلوبية، وترجمة مصطلحاتها واعتماد تقنية النحت في مواطن كثيرة لإثراء المنظومة الاصطلاحية لهذا المجال اللساني الأسلوبي.

3.4 ممارسة الأسلوبية البنوية:

قدم عبد الجليل مرتاض في كتابه (البنية اللسانية في رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي) وتحديدًا في الفصل الثاني (بنية رسالة "الضب" في جانبها الأسلوبي) قراءة أسلوبية لرسالة (الضب) للكاتب الجزائري البشير الإبراهيمي، وقد استهل مبحثها الأول بالتعريف بالأسلوبية من حيث البنية الأسلوبية، والأسلوبية في منظور مؤسسها (شارل بالي)، والإخفاق في إعطاء نظرية أسلوبية سوسيرية، والتساؤل هل هي أسلوبية أم أسلوبيات، وتركيزه على الأسلوبية الوصفية، وتحديد مجالات الأسلوبية، وصولاً إلى أسلوبية ريفاتير البنيوية، ودعوة فورمينغ إلى فصل اللغة عن العمل الأدبي، ويتساءل بعدها عن أسباب اختفاء المقالات الأدبية من الصحائف الجزائرية منطلقاً من عدّ رسالة (الضب) مقالة أدبية صحفية.

وفي المبحث الثاني -ولا يتجاوز الصفحتين- تناول (أسلوبية رسالة "الضب") حدد الهوية الأدبية للرسالة، يقول: " وإذا كنا حكمنا على هوية مدونة (رسالة الضب) بأنها نتاج لساني أدبي رفيع، يدخل في باب المطارحات والمساجلات الأدبية، فإن نصنا إذا لغوي وتبليغي، إنه موضوع لساني، وانطلاقاً من هذا المبدأ الأولي، فإن نصنا مغلق، ومعين بزمان وفضاء أو منته بنويًا"³⁶، ويرفض ما تعلق بخارجه وأن يكون له مرجع يؤخذ به في الدراسة الأسلوبية من منظور لساني.

ولعل الممارسة الفعلية للأسلوبية تبدأ في المبحث الأخير (الظواهر الأسلوبية لرسالة الضب)، والذي استهله الباحث بالعنوان التحليل الأول بعدّه ظاهرة أسلوبية بنويّة وصفية، ثم تتوالى التحاليل السبعة، إذ قسم المدونة -النص إلى وحدات سبعة وقام بتحليلها تحليلًا أسلوبياً وصفيًا، كان يؤكد صعوبة الالتزام به بصرامة إجراءاته، يقول: " فكذلك نفق هنا على نموذجين متباينين عند الإبراهيمي، لكن يصعب علينا أن نعد -في ذلك الوقت على الأقل- مما يدخل في الأسلوبية الوصفية إلا من حيث هو تعبير عصري شائع في العربية الحديثة، لأن الأسلوبية

الوصفية لا تتساءل: لم يكتب فلان؟ بل تتساءل: كيف يكتب فلان؟ بل حتى هذا السؤال الأخير كثيرا ما أجابت عنه البلاغة القديمة³⁷.

ويختتم هذا الفصل بإقراره أن ممارسته الأسلوبية الوصفية قد تكون في نظر بعض المطلعين عليها مجانية للمنهج -التحليل- الأسلوبي الوصفي، وذلك بسبب ربطها التزامني الحاضر بالزماني الغابر، يقول: "وقد يقول قائل: ما تتحدث عنه لا صلة له بأية أسلوبية وصفية ولا حتى وراثية، والواقع أننا ما برحنا متمسكين بطرحنا الذي لمحننا فيه إلى استحالة فصل ما هو آني جزئيا أو كليا عما هو تاريخي، ومن ثم يصعب، بل يستحيل علينا أن نتفرس وصفية مستقلة عن معيارية خلفية"³⁸.

وقد أكد الباحث في كتابه سالف الذكر أن المناهج أولى بالخضوع إلى قراءتها، وجعل هذا الرأي عنوانا من عناوين الفصل الرابع (عندما تطفح ذاكرة الإبراهيمي)، يقول: "ولذلك من السخف الذي يدعو إلى الضحك أن نتحدث على منهج معين في تلقي ما تتلقى، لأن ما نحسبه أن كل تلق بذاته منهج، ومن ثم فإن ما ينبغي أن يخضع إلى القراءات المناهج، فبعدد الأولى تتعدد الثانية أو بفشل الأولى أو توفيقها تفشل أو توفق الثانية [...] أضف إلى ذلك أن سلطة النص لا تدحض ولا تقهر، لكن مسؤوليته لا تعدو نفسه فور إقفاله، وما يقال عنه بهذا القبيل أو ذاك، يعد بلهنية يتلذذ ساخرا بها أمام قداسته المصونة بشكل لا يماثل إلا شكله"³⁹.

والذي يعنينا سواء وفق الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض في الالتزام بإجراءات الأسلوبية الوصفية كما نظر لها منظروها الغربيون أم تجاوزها، طابعا تحاليله اللسانية الأسلوبية ببصمته الخاصة، فإنه أظهر من خلال تحاليله الأسلوبية قدرة غير خافية في استغلال الأسلوبية وإثراء نص الإبراهيمي نقدا.

5. خاتمة:

ونخلص مما سبق إلى أن الباحث الجزائري عبد الجليل مرتاض لم يكتف بتعريف المتلقي العربي بمبادئ الأسلوبية واتجاهاتها ومفاهيمها وأبرز وسائلها الإجرائية عند روادها والمؤسسين لها- وهو جهد يستحق التنويه به والإشادة بصاحبه، ويدل على إلمام الباحث الواسع بهذا المجال من الدراسات اللسانية-، وإنما تجاوز ذلك إلى التعقيب على الآراء وتحليلها والتمثيل لها لتبسيطها وإزالة الضبابية عنها، وتجاوز ذلك إلى ترجمة بعض أقوال الأسلوبيين وأصحاب القواميس المتخصصة في اللسانيات والأسلوبية، وترجمة مصطلحاتها واعتماد تقنية النحت في مواطن كثيرة لإثراء المنظومة الاصطلاحية لهذا المجال اللساني الأسلوبي، وصولاً إلى ممارسة التحليل الأسلوبي جاعلاً المنهج تابعا للنص.

6. المراجع

- ¹ - محمد عبد الله جبر: الأسلوب والنحو (دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظواهر النحوية)، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 1988، ص9.
- ² - بيبير جيرو: الأسلوبية، تر منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط2، 1994، ص6.
- ³ - نفسه، ص9.
- ⁴ - نفسه، ص10.
- ⁵ - نفسه، ص27.
- ⁶ - جميل حمداوي: اتجاهات الأسلوبية (نسخة إلكترونية)، مكتبة المثقف، ط1، 2015، ص8.
- ⁷ - صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998، ص5.
- ⁸ - نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجرام، ط1، 2003، ص33.

- ⁹ - جميل حمداوي: اتجاهات الأسلوبية، ص 9-10.
- ¹⁰ - ومن هؤلاء فتح الله أحمد سليمان: الأسلوبية مدخل نظري وتطبيقي؛ رامي علي أبو عايشة: اتجاهات الدرس الأسلوبي في مجلة فصول (1980-2005)؛ صوفي حليلة: الأسلوب بين البلاغة والأسلوبية؛ وغيرهم.
- ¹¹ - نفسه، ص 15-16.
- ¹² - عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط3، د.ت، ص 41.
- ¹³ - نفسه، ص 48-49.
- ¹⁴ - نفسه، ص 49.
- ¹⁵ - عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2007، ص 183.
- ¹⁶ - نفسه، ص 186.
- ¹⁷ - نفسه، ص 186.
- ¹⁸ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص.
- ¹⁹ - عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة، ص 198.
- ²⁰ - نفسه، ص 205.
- ²¹ - بيبير جيرو: الأسلوبية، ص 9.
- ²² - عبد الجليل مرتاض: اللسانيات الأسلوبية، دار هوم، الجزائر، ط2، 2016، ص 105.
- ²³ - نفسه، ص 105.
- ²⁴ - نفسه، ص 106-107. إحالة إلى Georges Mounin : Clefs pour la linguistique, p151
- ²⁵ - نفسه، ص 110.
- ²⁶ - يروي ما ورد في انتقاد امرئ القيس في قال:
- لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلثها العصي
فتملاً بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شعب وري
- "قول أعرابي متلفع في شملته لا تجاوز همته ما حوته خيمته"

- 27- عبد الجليل مرتاض: اللسانيات الأسلوبية، ص112.
- 28- نفسه، ص112.
- 29- نفسه، ص115.
- 30- نفسه، ص118.
- 31- نفسه، ص125.
- 32- نفسه، ص142.
- 33- نفسه، ص143.
- 34- شكري عياد في كتابه (مفهوم الأسلوب: بين التراث النقدي ومحاولات التجديد)، ص53 وعبد السلام المسدي في كتابه (الأسلوب والأسلوبية)، ص66-67. وصلاح فضل في كتابه (علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته)، ص95-96.
- 35- عبد الجليل مرتاض: اللسانيات الأسلوبية، ص153.
- 36- عبد الجليل مرتاض: البنية اللسانية في رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي، دار هوم، الجزائر، ط 2014، ص62.
- 37- نفسه، ص74.
- 38- نفسه، ص77.
- 39- نفسه، ص117.